

(التطرف والقمع -

التعصب والارث القاهر)

بقلم: عبدالهادي عبدالرحمن

المستويات، وانفجار القيم «البتروولية» أو الاستهلاكية والتي لا تمثل إلا وجهاً بشعاً من وجوه تلك التبعية، وسقوط الأحلام المتعجلة في الحرية والوحدة الاشتراكية تحت مطارق وضع تاريخي لا يرحم، وتصاعد المخلب الصهيوني ليمتد إلى مصر ولبنان والعراق وتونس، وجماهير تائهة لاهثة وراء لقمة يومية، ومن ثم ازدياد القمع والقهر: القمع السياسي والكبت الحزبي . . القمع الطائفي والتعصب الديني، العبء القيمي والتقاليد الموروثة، قهر الحاجة بالإضافة لإرثنا الاستعماري . وفي هذا الجو نمت الطائفية والانعزالية والاقليمية والعصبية السلفية والعرقية، وحمل كل نمو سيفه ليتقض على أعدائه الوهميين أو الحقيقيين، وبدلاً من أن تحل الأزمة ازدادت تفاقمًا .

هذا هو الواقع المر الذي يحتاج حشد كل الطاقات الفكرية والبشرية والسياسية لمواجهته . قد يكون هذا الواقع أزمة مخاض، وبأنها مستقبلياً لا بد وأن تنفتق عن جديد يولد من رحم كل هذه التناقضات .

ربما يجعلنا الحديث عن التطرف والقمع نسقط في التعميمات والإطلاقات غير الدقيقة لأن كلمة «تطرف» تبدو لفظة بلا مدلول علمي دقيق، ومعناها نسبي . فالثوري دائماً يصبح متطرفاً بالنسبة للمحافظ، ويبدو الجديد متطرفاً

في هذه الأيام كثر الحديث عن الأزمة . أزمة الفكر السياسي العربي، أزمة حركة التحرر العربي، وأزمة الحرية في المجتمع العربي . . إلخ . حتى ليظن المطلع على الجدل الدائر، بأن حياتنا كلها ليست إلا أزمات فوق أزمات تحت أزمات . . وفي الحقيقة نحن نراها أو نظنها هكذا أيضاً، بل ونرى بأن العوم أو السباحة داخل هذه الأزمات كان دائماً في اتجاه التردّي من الفعل لردّ الفعل ثم من ردّ الفعل لشيء يشبه الشلل التام، حتى بتنا نديج البيانات ونعقد المؤتمرات ونحذر، ورغم ذلك نعود جرياً إلى بيوتنا نرفع أثوابنا، ونخاف أن تصل السكين رقابنا في أسرتنا، وقد تهمنا ماسورة مثقوبة في المرحاض أكثر من مذبحه بشعة لعرب فلسطين في شاتيل أو إطلاق إسرائيل لأول صاروخ فضاء . . أي إن الأزمة وصلت بنا أو أريد لها أن تصل بنا إلى حد فقدان القدرة التامة على الفعل أو المواجهة سوى ببعض اللغو أو الثرثرات الفارغة .

نحن لا نتباكي على حرية ضاعت تهدئة لرغبات ماسوشية أو غيرها، فالأزمة كانت قائمة بشكل دائم تحت السطح وفوق السطح، غير أننا نحسها الآن بشكل أكثر حدة ونحن نرى القلاع تتهاوى واحدة إثر أخرى تحت الضربات الاستعمارية، والهزائم المستمرة وازدياد التبعية على جميع

بالنسبة للقديم، وقد يخرج القديم من عقاله بثوب جديد أو بال وهو يواجه زمناً غير زمنه فيبدو أيضاً على طرف النقيض من عدوه . . والقمع - رغم أنه قاعدة زماننا - يصبح تطرفاً ضد ما هو إنساني فينا، ولذا يغدو التطرف قاعدة أيضاً، ويصبح ما عداه استثناء أو شيئاً منفيماً أو منعدماً، إن كان «التطرف» هو الموجود الأوحده أو الموجود السائد . . لكن المسألة هي غير هذا . . المسألة هي مسألة الجديد والقديم (فلكل جديد قوته ولكل قديم قوته، وتتطاحن القوتان لفترات زمنية قد تطول وقد تقصر حتى يخلي القديم مكانه للجديد، ويتحول الجديد إلى قديم في مواجهة جديد جديد، وهكذا تجري عجلة التاريخ)^(١).

يطل علينا القديم بكل جبروته، وقد ظن البعض - للحظات - بأنه اندفن مع ركام التاريخ، لكنه حي بل ويملك أسلحة أكثر عنفاً، والأهم من ذلك، أن أسلحته تتميز بهمجية لم يسبق لها مثيل، وباطلاقية لا تقبل الجدل، وبمسلمات لا تخضع لأي نوع من النقاش. وقد يتبادر إلى الذهن سؤال: لم انبعث التعصب الديني بكل هذه الحدة في وقت كنا نعتقد بأنه يجب أن يتلاشى!؟

والإجابة تنحصر في نقطتين رئيسيتين:

الأولى - سياسية/سياسية: حين يمتلك الحكام كل أدوات السلطة، ويمتلكون الحق الأوحده في القول والفعل، وحينما يواجهون برودة فعل يزدادون قهراً وجوراً، ويغلقون كل أبواب الوعي، وفي هذه الغابة لا تنمو غير الأنساب والمخالب، لأن لغة العقل تنزاح جانباً، فيهرب من يهرب من جحيم الأرض لجنة السماء، ويحمل الآخر أسلحته، وتخفي الكلمة ليحل محلها السكين . . وما دام الكل يخضع للسكين وما دام البعض يمارس لعبة الاخضاع، فلم لا يتعلمها الآخرون؟! هذا جانب، والجانب الثاني تضليلي، تلعب به السلطة على العصب الديني، لتحضر مجرى الوعي في اتجاه آخر غير أن يتحول لاتجاه الثورة، ونرى هذا على مجمل خريطةنا العربية حيث تتمسح الحكومات بالدين بشكل أو بآخر، فترصد الميزانيات وتوجه البرامج الاعلامية وتنشر الكتب والأحاديث وتبني المؤسسات وتعقد الندوات وتصمم البرامج، ويصبح الحكام هم

المتدينين حقاً . . أما المنظمات الدينية الأخرى فهي مخالفة للدين الحق. وهي بذلك تربى الوحش ولا تدري، لأنها تشري أرضية جاهزة ليحفر فيها من يحفر من كل اتجاه تعصبي يرى التربة خصبة لتقوية أجنحته، ولعل مثال الحكومات المتعاقبة في مصر والتي لعبت على هذا الجانب مثل النقراشي باشا الذي استعان بالإخوان المسلمين لمواجهة شعبية حزب الوفد، ومثله فعل السادات عندما كان يواجه المد الشعبي اليساري في مصر بتقوية التنظيمات الدينية بطرق مباشرة أو غير مباشرة حتى قال البعض (بأن السادات ربي نمراً فافترسه)، وهذان المثالان يعبران عما تفعله السلطة حين تخلق مسارب تحفظ لها عروشها. ومما يجعل الناس يحترمون الموروث والتقاليد والتعبيد الحرفي بسلطتهما أن السلطة في بلادنا تتميز بدور متضخم وجامد في عصر سريع الايقاع يتغير كل لحظة، وربما يرجع ذلك إلى أننا خرجنا حديثاً - أو ما زلنا قابعين بشكل ما - في أحشاء المجتمعات القبلية والرعية أو الزراعية التي ورثناها. فالسيد يُحترم لأنه سيد، والسلطان يحترم لأنه سلطان والحاكم - مهما يفعل أو يقل - فهو على صواب. فعندما انتقد العرب سياسة النظام المصري بعد «كامب ديفيد» قال البعض بأنهم يشتمون مصر، فالسيد يتحول في الذهن القبلي إلى كل الوطن أو الأمة، ويتنفي دوره كمنفذ لسياسة ليصبح فوق كل شيء، والأمثلة كثيرة يمكن أن تجدها في أي مكان من أرضنا العربية.

النقطة الثانية/ هي أمر يرقد في أعماق التاريخ. فالأفكار السلفية والخرافية والأسطورية، تعيش بيننا وفيها بقوة قد لا تكون موجودة بالقوة نفسها في العالم المتقدم، وانبعاتها لا يحتاج إلا لشكة إبرة. لقد جاء التقدم عندهم كثورة على كل قديم، وقامت الثورة البرجوازية على أنقاض الاقطاع فهدمت معه السلطة الكنسية، وغدا الدين مسألة هامشية بالنسبة للأوروبي، كما قامت الثورة الاشتراكية ١٩١٧ علمانية خالصة ضد الرأسمالية وبقايا الاقطاع والقيصرية والكنيسة أيضاً. بينما وصلنا (التقدم) من خلال الاستعمار الأوروبي، هذا التقدم ليس إلا الشكل السطحي أو القشرة لتخلف كبير فرضه علينا ولا يزال. فلقد طورنا بنياتنا

يعيش فيه كلية، يندمج فيه تماماً، ولا يذكر عصره إلا عندما يدير مفتاح سيارته أو يفتح باب ثلاثته - إن كان يذكره حقاً

قد يقول البعض بأن الخرافات لم تختف من المجتمع الصناعي المتقدم، بل ونضيف بأنها قد تكون منتشرة أيضاً. لكن تلك الخرافات ليست إلا (رد فعل على العلم المتغلغل في كيان المجتمع ومحاولة للتخلص من قبضة تلك العقلانية المحكمة التي تمسك بجميع جوانب حياة الناس عن طريق بعث عناصر لاعقلية من مكنها اللاشعوري. إنه تعبير عن تمرد الشعوب الخاضعة للعقل على هذا العقل ورغبتها في الخروج عنه، وإن كان ذلك لا يتم إلا بصورة مؤقتة لأنها في النهاية تعود إليه بعد أن أصبحت حياتها كلها تنظم وفقاً له. . . وربما كانت العودة للماضي السحيق تساعدهم على تحمل الضغط والتوتر الذي تجلبه لهم الحياة الصناعية بإيقاعها السريع ونظمها الحتمية الصارمة «وعلاقتها الاستلابية غير الإنسانية»^(٥). . . (بينما يتخذ التفكير الخرافي في مجتمعاتنا شكل العداء الأصيل للعلم والعقل، ويمثل هذا العداء امتداداً واستمراراً لتاريخ طويل كان العلم يحارب فيه معركة شاققة لكي يثبت أقدامه في المجتمع. . . وهكذا فإن انتشار الخرافة يمثل في حالتنا تعبيراً عن جمود المجتمع وتوقفه عند أوضاع قديمة ومقاومته للتطور السريع المحيط به من كل جانب. . .)^(٦).

ونستطيع أن نضيف بأن انتعاش تلك الأفكار اللاعقلية، الاطلاقية التعميمية الجامدة، هو نتاج لهزيمة نعيشها، تتصاعد وتتراكم آليات أحداثها يوماً بعد يوم بفعل ضغوط استعمارية خارجية وأوضاع داخلية متردية، فقد لاحظنا أنه بعد الحرب الكونية الثانية، ازداد المد التحرري على مستوى العالم أجمع، ومس وطننا العربي بقوة جلية، وحققت بعض البلدان استقلالها السياسي، وفي هذا الجو كانت هناك محاولات للخروج من ربكة التبعية بمحاولات تنمية وطنية وبالتصنيع والتخطيط والانتاج، وفي ذلك الجو أيضاً كان الفكر يزدهر والفن يزدهر، وعند أول سقوط لهذا التيار وصعود القوى الاجتماعية الطفيلية وازدياد التبعية السياسية والاقتصادية انتعشت ثقافة ارتزاقية مناهضة للابداع تمجد الحكام وتبرر أفعالهم وأقوالهم، وبجانبها انتعش

الاقتصادية بما يوافق تقدمه هو، طورناها من مجتمعات شبه اقطاعية أو آسيوية أو قبلية إلى بنيات رأسمالية تابعة، وأخذنا البرلمان الغربي ومجالسهم كديكور، وأمنا بعض الصناعات وأنشأنا بعض الأحزاب وتكلمنا أحياناً عن الاشتراكية، وأبنتنا كلها من الداخل قبلية يعيش فيها السوس، وعقليتنا لم تتغير عن ذلك البدوي في الصحراء رغم أننا نركب المرسيديس وربما نرقص رقصات غريبة أيضاً، وظل تراثنا كله داخلنا لم يمسه ولم تهب عليه رياح تغييره أو على الأقل تهزه هزاً، وكما يقال (ليس وعي الناس هو الذي يحدد وجودهم، بل إن وجودهم الاجتماعي هو الذي يحدد وعيهم)^(٢). . . (فأيدولوجيا السلفي التقليدي تتضمن استلاباً زمنياً معيناً يتلخص في أنه إنما يعيش في «حلم زاه» مفصول الجذور عن الواقع المعاش واللحظة التاريخية الراهنة، أي إن الأيدولوجيا التي يحملها هي بمعنى من المعاني وعي زائف وغيسوم تحجب الحقيقة التاريخية الفاعلة، وكل شيء وفق أيدولوجيته خاضع لإطاره المرجعي أو نموذج المثالي الذي هو في غالب الأحيان لا يتجاوز فترة حياة الرسول والمرحلة الراشدة رغم تناقضاتها العديدة إذا درست وفق منهج تاريخي موضوعي)^(٣). . . (وعندما يقرر السلفي أن العرب والمسلمين عامة لن ينهضوا إلا بمثل ما نهضوا به بالأمس مستفيداً من قولة الإمام مالك «لا يصلح أمر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها» فهو يفكر في النهضة داخل مجال خاص، داخل منظومة مغلقة هي تلك التي يقدمها له النموذج العربي الإسلامي في القرون الوسطى والتي تشكل إطاره المرجعي الوحيد)^(٤).

ليس غريباً، إذن، أن نسمع عندنا وقرب نهاية القرن العشرين مفتي الجامع الأزهر منذ عامين أو أكثر وهو يسأل (هل أكل الدود يفطر الصائم في رمضان أم لا؟!)، وهو لم يفكر لحظة واحدة بأنه يعيش في هذا القرن، قرن التقدم التكنولوجي الهائل بسفن فضائه واكتشاف المجرات البعيدة، والكمبيوتر واكتشاف الشفرة الوراثية وزراعة الأعضاء، فهو لم ينفصل أبداً عن ماضيه، لم ينفصل أبداً عما يقرأه ويردده من كتب غثة أو سميثة. . . المهم فقط أن يستدعي الماضي حينما يشاء ويستدعي التاريخ أياً كان، بل

السلفي، وهمشت روح الخلق والنقد والابتكار، لتبدل بحالة من الجمود، وفي غياب أي مناهضة فاعلة، سواء بحكم حجم وطبيعة هذه المناهضة أو بحكم الضغط الواقع عليها، كانت السلفية والطائفية تقتلع ما أمامها. الطائفية ترى في الدين والعرق حماية وهمية، والسلفية تدعو إلى الدولة الإسلامية (معتبرة الامبراطوريات الأموية والعباسية والعثمانية دولاً إسلامية، وتطور الأمر بالسلفي أن يحمل القوة ويمارس العنف لفرض برنامجه باسم الله وإن أدى ذلك إلى حروب طائفية، وهو بهذا يعلو على التاريخ والزمان والمكان. (٧).

الوجه الثاني لهذه النقطة - هو أيضاً تاريخي - وهو العجز شبه المطلق في مواجهة التطور، بحكم التخلف عن متابعة العصر واللاحق به، وبالتالي الهروب منه، ومن ثم الغاؤه من الوجودان، فالتقدم يستلزم زمناً طويلاً وتفاعلات جمّة وصراعات وثورات متعاقبة، ولأن التقدم لا تحضره القرارات أو البتروال أو الأرصدة المالية، ولأننا في هذا الزمن ما زلنا أطفالاً نواجه عجزنا بالهروب، وبدلاً من أن نواكب اللحظة الحضارية ونقفز عليها ونكبر بسرعة، نمص أصابعنا كفظيم فقد ثدي أمه.

الوجه الثالث لهذه النقطة، قد يستحضره مثل بولندا، حيث الكنيسة ما تزال قوية، وقد تكون أقوى وجوداً من الحزب الحاكم، فالدين لا زال يشكل جزءاً مهماً من وجدان الجماهير، ورغم عوامل الصراع العالمي، والكبت الداخلي والأزمة الاقتصادية، إلا أننا يمكن أن نقول بأن الأفكار الميتافيزيقية هي محاولة لفهم العالم كلياً والسيطرة عليه بطريقة يكون للخيال البشري فيها دور أكبر، فحينما نجد معلوماتنا ناقصة عن أمر ما - بل وحيثنا الكبرى ازدادت بازدياد تعقيدات عالمنا - فإننا نستعين بخيالنا والذي هو أبسط وأسرع استحضاراً، وخاصة وأن الأجواء حولنا مشبعة بمثل هذه الأفكار الغيبية. وتدعم مثل هذه الأفكار وأحياناً بشكل يبدو فجائياً في مواجهة العلمانية القهرية وافتقار وسائل وأدوات الحوار العقلي، وقد يبلغ نموه حد التعصب فيحمل أسلحة ويمارس عنفاً ويكبت حرية البحث والابداع. وإن كانت الأوضاع في بولندا أقل حدة مما هي

عليه في منطقتنا، حيث يختلط لدينا التعصب الديني الطائفي بالتعصب القبلي والعنصري بالاقليمية. ويشد انتباهنا الآن حجم المعارك والحروب الطائفية والدينية والاقليمية الدائرة في العالم المتخلف أو ما يسمى بالعالم الثالث، حيث تبدأ المعارك ولا تنتهي إلا بمذابح جديدة في دورة «قدريّة» مجنونة بلا نتيجة سوى ضحايا جدد وتراث من العداء المستحکم، وصراع يظهر أكثر بدائية من عصره. ويبدو هذا واضحاً في لبنان وفلسطين والهند وسيريلانكا وأميركا اللاتينية. الخ. حقاً تختفي الأهداف السياسية الكبرى تحت سطح تلك الضربات الطائشة، إلا أن هناك تربة خصبة تمتد خيوطها ليد لاعب العرائس ليحركها في الاتجاه الذي يريد، وهي تربة الجهل والتخلف والتبعية. (وتكفي أية هزة قومية أو اجتماعية عنيفة لا يقاظ «الغول» من سباته وتجديد قوته الطاغية، كما حدث أيام ألمانيا النازية وكما يحدث بيننا في لبنان، وهذا وحده دليل على أن معركة العقل ضد التعصب لم تنته بعد، وعلى أن الإنسانية ما زالت في حاجة إلى قرابين كثيرة قبل استئصال هذه الآفة. (٨).

نعود الآن إلى إرثنا والتعصب، فالمتعصبون يرون في ماضيهم الخير كله وما عداه هو الشر كله. المتعصب يقول أنا وحدي من يمتلك الحقيقة المطلقة، والآخر ليس لديه إلا النظرة الفاسدة. المتعصب يقول كل السلف صالح، أي إن الماضي هو الصلاح والحاضر هو الضلال. (فالسلفية أساساً تقوم على المبدأ السلفوي الأكبر وهو أن الأسلاف لم يتركوا شيئاً للأخلاف. وهذا يضعنا أمام وهم الانحدار التاريخي الذي يتحول بموجبه الحاضر إلى بعد منحرف عن الماضي والذي ينبغي - من ثم - تقويمه) (٩). فالمتعصب يلغي حاضره من أجل ماضيه، بل ويلغي حاضر الآخرين من أجل ماضٍ يخصه بالحسن كله وبالجلال كله، وحاضرنا لا يعدو أن يكون جاهلية القرن العشرين يجب الجهاد ضدها. . . . والمتعصب فرد، والمتعصب جماعة، وأخطر ما في أمر الجماعة المتعصبة أنها تلغي فردها بل وتلغي ذات الآخر أيضاً، فالأمر ينتقل هنا من أمور عقلية بينة إلى استدعاء (غريزة الهدم) الكامنة في أعماق اللاشعور -

ظل امبراطورية إسلامية ضخمة تمتد على مساحة واسعة من العالم آنذاك، ولا سيما أن وسائل الحكم والاتصال والتطور لم تكن تطورت بنفس القدر الذي هي عليه الآن. هنا يمسح التاريخ بتقديس الأشخاص، فشخص عادل واحد - حتى ولو كان في موقع الخلافة - هو دليل على العدل الشامل في كل أرجاء دولة الخلافة، هنا يتجزأ التاريخ ويفقد شموليته. نحن لا نناقش التاريخ الآن، ولكنني سقت مثلاً واحداً يعبر عن العقلية التعصبية، أتبعه بمثال آخر عن تلك الأشرطة السينمائية والأفلام حول الأحداث التاريخية، والتي تدفع بالتعصب إلى الأمام وتجعل شخصيات تاريخنا كلهم أبطالاً، وأعداؤنا كلهم جبناء أو شريرين. وتقديس رجالنا يعني نقلهم لصف بعيد عن الصفة البشرية، وإضفاء هالة وهمية غير موضوعية عليهم (لعلنا يجوز لنا أن نضيف جملة اعتراضية حول انعكاس ذلك الآن حول نظرة الناس للحكام بصفتهم كيانات علوية تفهم ما لا يفهم الناس وتقول وتصنع ما لا يقدر عليه الناس، أو هم على أقل تقدير يعرفون أكثر ويفهمون أكثر من المحكومين، لا بحكم مواقفهم سلباً أو إيجاباً ولكن بحكم الموقع الذي هم فيه). قد نعتد بأبطالنا، بل يجب أن نعتدّ بهم ونعترف بفضلهم، ولكننا يجب أيضاً أن نعترف؛ للآخرين من فضل، ويجب أن نرى الآخرين حتى في حالة الصراع معهم فالصراع لا ينفي التفاعل والأخذ والعطاء، والصراع لا يعني الحط من قدر الآخرين أو هدمهم كذوات منفصلة عنا، أو أنهم وحدهم الأشرار ونحن فقط الأخيار. ولعل المثل اللبناني هو أكثر الأمثلة فجاجة حينما يقتل الناس بسبب أسمائهم أو طائفتهم أو أفكارهم، وقد لا تكون لهم ناقة ولا جمل في ذلك الحصاد المدمر، فالمتعصب لا يفكر أبداً في ما يعتنقه وإلا لما أصبح متعصباً، لأنه قد صادر حريتك باعتبارك الآخر أو الفكر المختلف، أو ككيان له الحق أن يعتنق ما يريد وأن يجد ذاته بالطريقة التي يحب، والمتعصب الفرد يلغي أيضاً ذاته وليس له موقف يختاره بنفسه (فالتعصب هو موقف تجد نفسك فيه، ولو شاء المرء الدقة لقال إن التعصب هو الذي يفرض نفسه على الإنسان، وهو أشبه بالجو الخائق الذي لا نملك مع ذلك إلا أن نتنفسه، فالتعصب يكره الآخرين من

إن جاز تعبير «فرويد». يختفي الحوار وتصبح السلطة لهيمنة مجموع غير مروض، وتصبح السلطة سلطة نص للقديم لا تقبل الجدل، وسلطة مسلمة لا تقبل الأخذ والعطاء، وسلطة الغاء للعقل أو للذات من الاحتماء بالجماعة وارتها ونصوصها في مواجهة واقع يبدو مجهولاً لا عقلياً. وبدلاً من اعتبار التاريخ - أي تاريخ - هو محصلة تفاعلات إنسانية ترتبط بعصرها ولا تحلق في سماء غير سمائه، وبالتالي يخضع للنقد ويتحمل ما يتحملة كل تاريخ بحلوه ومره وتقدمه وتراجع، بدلاً من ذلك يأخذ هذا التاريخ صفة القداسة بكل أبعاده وأحداثه وشخصه، فكل الخلفاء راشدون، وكلهم رضي الله عنهم، وكل المعارك القديمة معارك حق، وكل المذابح جهاد وكل دولة قامت على هذا القانون هي إسلامية بالضرورة حتى ولو كانت عثمانية الاسم استعمارية المضمون، وكل موروثنا القيمي الرجعي حماية من انحلال يحيط بحياتنا كلها. ويتم التعامل مع هذا التاريخ باجتزاء بعض أحداثه وإهمال شموليته - بالطبع يتعامل المتعصب مع الجزئيات التي تغذي تعصبه وقد لا يفهم الكليات اطلاقاً - أي باختصار تحطيم هذا التاريخ تنفأ تنفأ من أجل رغبة ضيقة الأفق. فما أن تطل مقولة بتمجيد شخص، حتى توظّر وتلمع وتعاد وتكرر وتتحول لحقيقة مطلقة أو مسلمة لا تقبل الخدش أو حتى كلمة، ولنضرب مثلاً بسيطاً، هو مثال الخليفة عمر بن عبد العزيز، ذلك الخليفة حسن السيرة، والذي تحول إلى أسطورة في العدل(*)، فقد يكون هذا الخليفة شخصاً تقياً عادلاً لكنه لم يستطع أن يتخلص تماماً من إرث بني أمية الظالم، وما كان يستطيع ذلك في مدة خلافة لا تزيد عن أربع سنوات وفي

(*) روي عن عمر بن عبد العزيز أنه قال / لعن الله الحجاج فإن عمر بن الخطاب جبي العراق بالنصف مائة وثمانية وعشرون ألف درهم وجباه زياد (١٢٥) مليوناً، وجباه ابنه عبيد الله أكثر (ب عشرة ملايين) ثم جباه الحجاج مع عسفه وجبروته ثمانية عشر ألف درهم فقط وأسلف للفلاحين للعمارة ألف ألف وأربعة وعشرين ألف ألف فحصل له (١٦ مليوناً)، وها أنذا قد رجع إلى خراجه فجيته مائة ألف ألف درهم وأربعة وعشرين ألف ألف درهم بالعدل والنصف، وإن عشت لأزيدن على جباية عمر بن الخطاب) (أنظر معجم البلدان لياقوت الحموي ج ٣ ص ٢٧٢. دار صادر وبيروت. بيروت ١٩٧٩م.

خلالي أو يقتلهم بواسطتي، وما أنا «أو أي فرد» بالنسبة إلى التعصب سوى أداة يتخذها لتحقيق هدفه المشؤوم، ذلك لأنني حين أقع تحت قبضته لا أصبح شيئاً ولا أسعى من أجل شيء إلا لكي ألبى نداءه»^(١١) (كما ينطوي التعصب على تفكير أسطوري، فالموضوع الذي نتحيز له يتحول إلى أسطورة ويختفي طابعه الحقيقي ويحل محله طابع وهمي مختلق. . . ومن هنا كان أساس النازية هو أسطورة الجنس الآري المتفوق، وكان أساس التفرقة العنصرية هو أسطورة الجنس الزنجي المنحط، أو هو (أسطورة شعب الله المختار في فلسطين))^(١٢).

لقد بلغ التعصب لدينا درجة أصبحت تهدد ليس حريتنا فقط كمواطنين عاديين أو مفكرين وإنما تهدد وجودنا الحر ذاته ومستقبلنا كله، فلقد امتلك المتعصبون تنظيماتهم المسلحة وبنوكهم ووسائل اعلامهم وسيطروا على الشارع السياسي بشكل كبير، وأصبحوا لا يهددون أمن الطوائف الأخرى أو العقائد الأخرى فقط، بل الأشخاص العاديين المنتمين لعقيدتهم أو طائفتهم (فمن ليس معي هو ضدي)، وقد وصل الأمر بهم في بعض البلاد الغربية كمصر مثلاً إلى منع الحفلات الموسيقية العادية في الجامعة باستخدام السكاكين والعصي، وذلك لأن ذلك لأن الموسيقى - أرقى إبداعات العصور - غدت في عرفهم حراماً، ومثلها الرسم والتصوير والسينما ومعظم أشكال الفن والأدب تدخل في جاهلية قرننا المسكين، وهم يهددون بقتل المفكرين الأحرار، كما فعلوا في لبنان بشيخ الفكر حسين مروة أو ناجي العلي أو غيرهما، هؤلاء الذين لم يحملوا في أيديهم سوى القلم أو الريشة، وحاولوا اختراق فواصل التاريخ من أجل تفتيح العقل وتنويره.

الشيء الآخر هو أن ما يسمى بالجدل أو الحوار بين السلفيين والعلمانيين هو حوار الطرش، لأن طرفاً وحيداً هو المتكلم، ولأن طرفاً وحيداً هو المتاح له أن يرغي ويزيد، متاح له بعدة سلطات قسرية، بسلطة التراث وسلطة النص، وسلطة الدين، ليخرس أي صوت آخر، فسلطة النص مقدسة، ولذا إن أردت أن تجادل فلتجادل من نفس الأرضية

التي يقفون عليها، عليك أن تلف وتدور وأن ترقص وتثنى بالنصوص أو أن تؤولها إن استطعت أو كانت لديك المهارة أن تلعب بالكلمات أو تستخدم ذكاءك وإن أردت أن تقول للناس بأن حرية المرأة أمر ضروري، فلا يكفي أن تقول هذا، بل عليك أن تستشهد بنص أو حادثة تقتلعها من إطارها التاريخي اقتلاعاً ولتضعها في سياق غير سياقها لتؤيد وجهة نظرك، وإن أردت أن تدعو للاشتركية، فعليك أن تستعين بحديث أو بموقف تافه قد تبدو منه ظلال الاشتراكية أو ربما (الشيوعية)، ولأن النصوص مطاطة تستطيع أن تمط كيفما شئت، ولكنك رغم ذلك لا تستطيع أن تناقش المسلمات ولا يجوز لك أن تقترب منها، وهكذا مكتوب عليك أن تفقد أهم أسلحتك وأنت تحاور، فأنت تجادل بأسلحتهم، ويجمدك الخوف تجميداً أمام سكين مشهورة في وجهك أو طست يجهز لأن شاة على وشك أن تنحر.

ولأن الجدل هذه طبيعته، تركت الساحة خالية، ودعمتها انتهازية السياسيين سواء في الحكم أو في المعارضة، ونمتها ديماغوجية الحكام، فبدأ الكل يتسابقون لتمجيد النصوص وتقديس التراث وتدعيم القيم البالية الموروثة. فإن نظرت إلى بائع جرائد أو مجلات في إحدى العواصم العربية، فلسوف تجد أكثر من تسعين بالمائة من الصحف سلفية الطابع رجعية المحتوى.

وإن كان الحوار قد توقف أو لم يحدث إلا كغمغمات خائفة مضطربة، وإن كانت النصوص كلها ثمينة ومقدسة وإن كان الماضي كله خيراً، وإن كانت الساحة قد بدت خاوية إلا من متعصبين أو سلفويين، فلم لا يتحدث شيخ الجامع الأزهر عن أكل الدود في رمضان ويستهلك البعض في الرد عليه، بينما اسرائيل تجهز لإطلاق أول قمر صناعي، أو أن يتحدث شيخ آخر عن ذبابة تلغ في إنائك فتغمسها، أو خطيب في مسجد عن شروط حجر الاستنجاء. . . نعم. . . شر البلية ما يضحك. نعم، كان هذا الخطيب يفقه الناس في دينهم فتحدث ساعة عن الحجر، وعن إذا بال الرجل في ماء جار هل يصح الوضوء منه، أو إذا حمل الرجل قربة فساء فهل تنقض وضوءه أم لا؟! من أي

كتاب حصل على مثل هذه الدرر؟! لا أدري!! . وعندما سألته/ ألم يبقى في ديننا يا رجل شيء نتحدث عنه سوى هذه الشروط المجحفة بالوضوء؟! . . رد قائلاً/ الناس معلوماتها ناقصة في أمور الفقه .

إن المشكلة ليست في الإسفاف فحسب، فالاسفاف كان دائماً موجوداً في كل عصر وضد كل قضية، ولكنك لا تمتلك حق الرد عليه إلا في اطار الموضوع المسفّ نفسه . وحق الرد هذا ليس حقاً قانونياً أو مكتوباً ممنوعاً، وإنما هو مزروع في المنبر أو في المكان أو في الهيئة التي يتربع عليها أشخاص مثل هؤلاء، وسلطتهم لا تنبع مما يقولون وإنما من سلطة الهيمنة السلفية على المجتمع ككل، دون متنفس يسمح بحرية القول فما بالك بحرية الفعل؟! .

المشكلة، إذن، مركبة الأبعاد، وليس هناك دواء سحري ينقلنا فجأة من مجتمعات متعصبة كابته قاهرة، إلى مجتمعات مفتوحة العقل، قابلة لشيء اسمه الحوار بحيث يحترم فيه الطرف الطرف الآخر، يقبل النقد، وأن يعطي العقول حظها الطبيعي بأن تجول كيفما شاءت، (وإلا ما الفرق بين الإنسان والحيوان إذن؟) .

والمشكلة أيضاً تاريخية، ولكننا يجب أن نتنظر التاريخ ليحل لنا مشاكلنا ببلاهة الغافل، فالتاريخ يصنعه الواعون عندما يمتلكون أدوات ووسائل الصنع في لحظة فاعلة قد لا تنتظر أحداً . يجب ألا نفهم التاريخ فقط بل علينا أن نغيره . ومهمة التغيير تلك هي مهمة كل المستنيرين، رغم ما في هذه الكلمة من تعميم، لكننا نقصدنا هكذا في عموميتها، فالأمر أكبر من فريق واحد أو انتماء واحد أو حزب واحد أو عقيدة واحدة، إنما هو قضية كل من يرفض التعصب ويقبل بالحوار أياً كان وأياً كانت طبيعته، والقضية قبل أن تكون قضية سياسية هي قضية حضارية . فلمحاربة التعصب يجب أن نعلو عليه ونهزم أنفسنا أن مسنا بعض رذاذه - فلقد شملت العدوى بعض التيارات المفروض فيها أنها معادية له ومساندة للعقل - وقد يعني الأمر جبهة أو أي شكل من الأشكال، المهم أن تشمل كل القوى المعادية للجهل المفتوحة على العلم والعقل، المتخلصة من ضيق الأفق

الحزبي أو العقائدي، المتفقة على حد أدنى للتخلص من هذا الداء السرطاني . وبحيث يجد كل إنسان الحق في أن يعبر عن رأيه في الصحف والمجلات والكتب، وأن تكون لكل القوى مساحتها المفتوحة دون قيود في كل وسائل الاعلام ودور النشر، ولو وصل الأمر بإحداها لمناقشة المسلمات المتوارثة - أية مسلمات - وذلك لإثبات فسادها أو صلاحها لنا ولتقدمنا . أي يجب أن نرى قضية تراثنا في حقلها الزمني ذاته . نراها في اطار لحظتها التاريخية، ولكن نراها أيضاً كقضية الحاضر، ودون خوف من سيف مشهر، بل باعتبارها جزءاً من حركة التاريخ وتفاعلاته، أو كما يقول د . حسين مروة (الخروج بقضية التراث من كونها قضية الماضي لذاته، أو كونها اسقاطاً للماضي على الحاضر، إلى كونها قضية الحاضر نفسه، وذلك من خلال رؤية الحاضر في حركة صيرورة تتفاعل في داخلها منجزات الماضي وممكنات المستقبل تفاعلاً دينامياً تطورياً صاعداً رغم التقطع الحادث في مجرى حركة الصيرورة هذه .) (١٢) . أي النظر إلى التراث والمسلمات نظرة موضوعية لا تلعب فيها الأهواء السياسية أو الحزبية أو الدينية لعبها .

قد يكون الثمن غالياً، سيدفعه ويجب أن يدفعه كل مدافع عن الحق . لقد تحمل طه حسين وعلي عبدالرازق وغيرهم كثيرون، ووهب مروة حياته ثمناً لحرية العقل في مواجهة ضجيج الجوقة من حملة الأقلام المشبوهة أو المرتزقة الذي يكتبون من أجل ذهب السيد . هؤلاء المرتزقة أو مغلقو العقول ليسوا إلا زبداً يذهب جفاء، أما ما ينفع الناس، فيمكث في الأرض .

إن الحرية لا تتجزأ، وحرية الفكر جزء من مجموعة حريات مجتمعية مترابطة لا تنفصل إحداها عن الأخرى، لكن دور المثقفين فيها دور أساسي، وبدونه يصبح النضال ناقصاً أو مبتوراً، هذا النضال الذي لا يستلزم فقط تفسير العالم ولكن يستلزم أيضاً العمل على تويره ومن ثم تغييره .

بالنسبة للمفكر لا يمكن فصل عقله وعقلانيته عن إنسانيته، وحين يوجه قبضته للتعصب، فإنه لا يفقد شيئاً

سوى قيوده التي تكبل هذه القبضة، ويربح في النهاية وجوده
كإنسان(*) .

المراجع

- (١) عبد الهادي عبد الرحمن. جذور القوة الإسلامية. قراءة نقدية
لتاريخ الدعوة الإسلامية. ص ١٩. دار الطليعة بيروت. ١٩٨٨.
- (٢) ماركس. كارل. مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي. دار التقدم
موسكو. ١٩٧٤م.
- (٣) تركي الحمد. الوطن العربي. البحث عن ايدولوجيا. مجلة
المستقبل العربي. ٤/ ١٩٨٨م ص ١٣.

(*) بحث مقدّم إلى مؤتمر الأدباء العرب في طرابلس -
الجمهورية.

- (٤) محمد عابد الجابري. الخطاب العربي المعاصر ص ٢٩. دار
الطليعة بيروت.
- (٥) فؤاد زكريا. التفكير العلمي. ذات السلاسل. الكويت ١٩٧٧م
ص ٨١.
- (٦) نفس المصدر. ص ٨٢.
- (٧) أنظر ناجي علوش. مجلة الوحدة. ص ١٨٢. يوليو/ أغسطس
١٩٨٨. مجلس الثقافة العربية. المغرب.
- (٨) فؤاد زكريا. المصدر السابق. ص ١١٢.
- (٩) طيب تيزيني. مجلة الآداب فبراير ١٩٨٨. ص ٣٤. بيروت.
- (١٠) فؤاد زكريا. نفس المصدر السابق. ص ١١٠.
- (١١) نفسه.
- (١٢) حسين مروة. النزعات المادية في الفلسفة الإسلامية. ج ١
ص ٢٩. دار الفارابي بيروت.
- (*) ياقوت الحموي. معجم البلدان. ج ٣ ص ٢٧٢. دار صادر
وبيروت. بيروت ١٩٧٩م.

دار الآداب تقدّم

السّاعر العربي الكبير أدونيس

في الصيغة النهائية لداوينة

• قصائد أولى • هذا هو اسمي

وقت بين الرماد والرّد

• اران في الريح • اغاني مريار المشقي

• مفرد بصيفة الجمع • كتاب التحوّلات والهجرة

• الطابقات والأوائل • في اقاليم النهار والليل

• المسرح والمرايا